

سورة الأحزاب[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الأحزاب] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادى هو الحق سبحانه ، رسول الله لقبه ، واسمه محمد ، واسمه أحمد كما ذُكر في القرآن ، والإنسان حين يُولَد يُوضع له اسم يدل على مُسمَّاه ، بحيث إذا أطلقه الواضع انصرف إلى المسمى ، والقوم الذين سُمُّوا لهم محيط يُعرفون فيه ، وغيرهم بنفس الأسماء لهم محيط آخر ، فمحمد هذا المحيط غير محمد هذا المحيط .

---

(١) سورة الأحزاب هي السورة رقم ٣٣ في ترتيب المصحف الشريف ، وهي سورة مدنية . عدد آياتها ٧٣ آية . نزلت في المنافقين وإيذائهم رسول الله ﷺ وطعنهم فيه وفي مناكحته لنسائه وزواجه ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش وأدب دخول بيوت النبي . وقد نزلت سورة الأحزاب بالمدينة بعد سورة آل عمران وقبل سورة الممتحنة فهي السورة رقم ٨٩ في ترتيب نزول سور القرآن . [راجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٢٧] .

وتعريف الإنسان يكون بالاسم أو بالكُنْية أو باللقب ، فالاسم هو العلم الذى يُوضع لمسمَّى ليُعلَم به ويُنادَى به ، ويُميِّز عن غيره ، أما الكنية فاسم صُدِّر بأب أو أم كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين ، فإنْ سُمِّى به بداية وجُعِل علَماً على شخص فهو اسم ، وليس كنية ، أما اللقب فما أشعر برفعة أو ضعة كما تقول : فلان الشاعر أو الشاطر .. إلخ .

فإذا أُطلق الاسم الواحد على عدة مسميات ، بحيث لا تتميز بعضها عن بعض وجب أنْ تُوصَف بما يميزها كأسرة مثلاً عشقتْ اسم محمد فسمَّتْ كل أولادها (محمد) فلا بُدَّ أن نقول : محمد الكبير ، محمد الصغير ، محمد الأوسط ..الخ .

ورسول الله ﷺ له اسم وكُنْية ولقب ، أما اسمه فمحمد وقد ورد فى القرآن الكريم أربع مرات :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ ..(٤٠) ﴾ [الأحزاب]

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [محمد]

وورد باسم أحمد فى موضع واحد هو : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف] وسبق أنْ تكلَّمنا فى علة هذه التسمية .

أما كنيته : فأبو القاسم . ولقبه : رسول الله .

وهكذا استوفى سيدنا رسول الله العَلَمية فى أوضاعها الثلاثة : الاسم ، والكُنْية ، واللقب .

واللقب يضعه أيضاً الأب أو الأم أو الناس المحيطون بالإنسان ، إما يدل على الرفعة تفاؤلاً بأنه سيكون له شأن ، أو يدل على الضِّعَة ، وهذه فى الغالب تحدث فى الأولاد الذين يُخاف عليهم العين ، فيختارون لهم لقباً يدل على الحطّة والضِّعة وما أشبهه (بالفاسوخة) يُعلِّقونها على الصغار مخافة العين .

أما لقب رسول الله ﷺ فقد اختاره له ربه عز وجل ، وطبيعى أنْ يأتى لقبه ﷺ مُشْعِراً برفعة أيما رفعة ، فهى ليست عند الخلق فحسب ، إنما رفعة عند الخالق ، فلما وُلد رسول الله أسماه جده بأحب الأسماء عنده . وقال : سمَّيْته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء[1] .

ولما وُلد القاسم كُنِّى به رسول الله فقيل : أبو القاسم ، فلما اختاره الله للرسالة وللسفارة بينه تعالى وبين الخَلْق لقَّبه برسول الله وبالنبى ، وهذان اللقبان على قدر عظيم من الرفعة لو جاءت من البشر ، فما بالك وهى من عند الله ، فأنت حين تضع المقاييس تضعها على قَدْر معرفتك وإمكاناتك .

فالرسول ﷺ رسول الله ونبى الله بمقاييس الله ، فهو إذن مُشرَّف عندكم ، مُشرَّف عند مَنْ أرسله و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام]

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ١٧٠) أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدّث أنها أُتيت ـ حين حملت برسول الله ﷺ ـ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سَمِّه محمداً .

فـأحبُّ شيء في الإعلام برسـول الله أن نقول : مـحـمـد ، أو أبو القاسم ، أو رسول الله ، أو النبي ، والحق سبحانه حين نادى رسوله ﷺ لم يُنَاده باسمه أبداً ، فلم يقُـلْ يا محمد ، إنما بلقبـه الذي يُشعر برفعته عند الحق سـبحانه ، فقال في ندائه : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (٦٥)﴾ [الأنفال] ، ﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١)﴾ [المائدة]

ولو تتـبـعتَ نداء الله للرسـل من لَدُنْ آدم عليـه السـلام لا تجـد رسولاً نُودي بغير اسمه إلا محمـد ﷺ . أما لفظ (محمد) فقد ورد في القرآن ، لكن في غير النداء ، ورد على سبـيل الإخبار بأن محمداً رسول الله .

وحتى في الإخـبار عنه ﷺ أخـبر الله عنه بلقـبه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة]

وقال : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [الفرقان]

إذن : في النداء استقل بيا أيها النبي ، ويا أيها الرسول ، أما في الإخـبار فـلا بُدَّ أنْ يذكر اسـمـه (محـمد رسـول الله) ، وإلا فكيف يعرف أنه رسول الله ؟ فيخبر به أولاً اسماً ومُسمّى .

ونُودي ﷺ بيـٰأيها النبي ، ويـٰأيها الرسول تعظيماً له ﷺ ، ونحن حـين نريد أنْ نُـعظِّم مَنْ ننادي نسـبق الاسم بـمـقـدمـات ، نقـول : يا سيدي فلان ، يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب العزة .. الخ .

وقد تقدمتْ (أيُّهَا) على المنادى هنا ؛ لأن الاسم المنادى المحلَّى بأل لا يُنادى مـبـاشرة إلا في لفظ الجـلالة (الله) فنقـول : يا الله ، فكأن الحق سبحانه توحَّد حتى في النداء ، هذا في نداء المفرد .

والحق سبحانه نادى رسوله بيأيها النبى ، ويأيها الرسول ، الرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه ؛ ليُبلغهم منهجه الذى يريد أنْ تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فمُرْسَل أيضاً من قبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرع جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ، ولم يُؤْمَر بتبليغها - وهذه مسائل خاصة بالنبوة - وله أمور أخرى أُمِر بها ، وأُمِر بتبليغها .

ومعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً بالمعنى الاصطلاحى ، وإلا فَهُم جميعاً مُرْسَلون من قبَل الله .

وكلمة (النبى) مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ أى : أمر عظيم ينبغي الاهتمام به ، وأصْله من النَّبْوَة ، وهى الشىء العالى المستدير فى وسط شىء مستوٍ .

فحين تقول : رأيتُ فلاناً اليوم ، هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] أى : الخبر الهائل الذى هَزَّ الدنيا كلها ، وملأ الأسماع ، وزلزل العروش .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام العربى مُقسَّم إلى خبر وإنشاء ، فالخبر نسبة كلامية كانت قبل النطق بها نسبة ذهنية ، وبعد النطق بها كلامية ، فإنْ كان لها معنى ومدلول فهى نسبة واقعية ، والخبر هو القول الذى يُوصَف بالصدق إنْ طابق الواقع ، ويُوصَف بالكذب إن خالف .

أما الإنشاء فهو مقابل الخبر يعنى : قولٌ لا يُوصَف بصدق ولا بكذب ، كأن تقول لإنسان : قفْ ، فهذا أمر لا يقال لقائله : صادق ، ولا كاذب .

فقوله تعالى لنبيه ﴿ اتَّقِ اللَّهَ .. ۝ ﴾ [الأحزاب] هذه نسبة كلامية من الله لرسوله ، ليحدث مدلول هذا الأمر ، وهو التقوى ، لكن أكان رسول الله ﷺ غير تقى حتى يأمره ربه بالتقوى ؟

نقول : ليس بالضرورة أنْ يكون الرسول عصى ، فيأمره الله بتقواه ، لكن الحق سبحانه ينشىء مع رسوله كلاماً بداية دون سابقة عصيان . أو : أنه الأمر الأول بالتقوى كما تقول لولدك فى بداية الدراسة : اجتهد وذاكر دروسك ، وأنت تعرف أنه مجتهد ، لكن لا بُدَّ من تقرير المبدأ فى بداية الأمر .

ثم إن الحدث يحدث فى أزمنة ثلاثة : ماض وحال ومستقبل ، فإذا طلب من شخص فعل شيء هو مقيم عليه بالفعل كقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝ ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يأمرهم بالإيمان ، مع أنه وصفهم وخاطبهم بلفظ الإيمان ؛ لأن المعنى : أنتم آمنتم قبل أنْ أكلمكم ، وهذا الإيمان السابق لكلامى ماض ، وأنا أريد منكم أنْ تُحدثوا إيماناً جديداً ، حالاً ومستقبلاً ، أريد أنْ تُجدِّدوا إيمانكم ، وأنْ تستمروا عليه .

فمعنى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ۝ ﴾ [الأحزاب] أى : واصل تقواك حالاً ، كما فعلتها سابقاً ، وواصلها مستقبلاً ، فلا تنقطع عنها أبداً .

أو : أن تقوى الله أمر يلصق الإنسانَ بربه ، والله كلَّف بأشياء ،

ثم أباح لك من جنس التكليف أشياء ، فإذا قال الله لرسوله ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] فهي غير قوله لنا : اتقوا الله ، فالأمر لنا نحن بالتقوى . أي : نفِّذ ما فُرِض عليك ، أما في حق رسول الله فهي بمعنى : ادخل في مقام الإحسان ، وجدِّده دائماً ؛ لأن مراقي القبول من الله لا تنتهي ، كما أن كمالات العطاء في الله لا تنتهي .

لذلك قال ﷺ : « من استوى يوماه فهو مغبون »[1] أي : من استوى يومه مع أمسه في قُرْبه من الله فهو خاسر ، لماذا ؟ لأنه ينبغي للمؤمن أنْ يزيد في قُرْبه وفي مودته ، وعلاقته بالله يوماً بعد يوم ؛ لأن نِعَم الله عليك متوالية تستوجب شكراً متوالياً ، وحمداً دائماً .

كما أن الحق سبحانه لا يكتفي من رسوله بما يكتفي به من سائر الخلق ، إذن : فالتقوى بالنسبة لرسول الله غير التقوى بالنسبة لسائر الخَلْق ، التقوى في حق رسول الله مجالها واسع ، وللرسول مع الله فيوضات لا تنتهي .

لذلك حين يناديك ربك للصلاة في كل يوم خمس مرات ، فاعلم أن فضله عليك غير مكرر ، بل فضله متجدد ، فعطاؤه لك في الظهر

---

(١) ذكره الزركشي في « التذكرة في الأحاديث المشتهرة » (ص ١٢٨) بطوله « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان آخر يومه شراً فهو ملعون ، ومن لم يكن على الزيادة فهو في النقصان فالموت خير له ، ومن اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن أشفق من النار لهي عن الشهوات ، ومن ترقب الموت هان عليه اللذات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات » وقال : « أسنده صاحب مسند الفردوس (الديلمي) من حديث محمد بن سوقة عن الحارث عن علي مرفوعاً وهو إسناد ضعيف » . قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/٢٣٥) : لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال : رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت : يا رسول الله ، أوصني ، فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد .

غير عطائه لك فى العصر ، غير عطائه لك فى المغرب ، وهكذا تكون التقوى عملاً متواصلاً ممتداً .

ولذلك يحذرنا أهل الخير أن نداوم مع الله فى شىء من الطاعة ، ثم نقصر عنها ، كذلك يحذرنا الشرع أنْ ننذر لله ما لا نستطيع الوفاء به ، لأنك بالنذر تفرض على نفسك الطاعة ، فأجملْ بك أنْ تظل فى مقام التطوع ، إنْ خفَّت نفسك للطاعة أدِّها ، وإنْ قصَّرت فلا شىء عليك .

وكونك تفرض على نفسك شيئاً من الطاعات من جنس ما فرض الله عليك . يعنى : أنك أحببتَ الطاعة وحلَتْ لك العبادة ، حتى زدتَ الله منها ، فقلت مثلاً : نذرتُ لله أن أصلى من الركعات كذا ، أو أتصدَّق بكذا من المال ؛ لأنك رأيتَ فى الصلوات الخمس إشراقات وفيوضات من الله فزدْتَ منها .

والحق سبحانه يطلب منا حين ينادينا للصلاة أنْ نسعى للمسجد ، مع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور ، لكن المسجد خُصِّص للصلاة ، فينبغى أنْ تُؤدَّى فيه . وأنت فى صلاة ما دُمْتَ تسعى للصلاة ، فمَنْ كان بعيد البيت عن المسجد عليه أنْ يأتى الصلاة فى سكينة ووقار ، ولا يخرج عن هذا السَّمْت حتى وإنْ تأخر عن تكبيرة الإحرام .

وقد ورد فى حديث سيدنا رسول الله : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتموا »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٦٠٢) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهناك مطلوب إيمـان ومطلوب إحسان : مطلوب الإيمان هو مـا فرضه الله عليك ، وجـاء فى الحديث القدسى : « ما تقـرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضته عليه »(١)

فإنْ أردتَ أن تتقرب إلى الله فتقرَّب إليه بما يحب ، ومن جنس ما فرضـه عليك ، فالله أمرك بصـلاة وصيام وزكـاة ، فإنْ حلَتْ لك هذه العبـادات فزدْ منها فوق مـا فرضه الله عليك ، وحـين تزيد اعرف أنه مسَّتْـكَ نورانية الإشراق فى العبـادة فقلت : الله يستحق منـى فوق ما كلَّفنى ، وهذا هو مقام الاحسان .

وسبق أنْ تحدثنا عن هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

وهل فرض الله على عبـده ألاَّ يهجع إلا قليلاً من الليل ؟ لا بل لك أنْ تُصلى العشاء ، وتنام حـتى صلاة الفجر ، كذلك فى الاستـغفار ، أما الذى لا يهـجع من الليل إلا قليلاً ويقوم فى السَّـحَر للاستغـفار ، فلا بُدَّ أنه حلَتْ له الـعبادة ، وحـلا له الوقوف فى حضـرة ربه ـ عز وجل ـ فدخل فى مقام الإحسان .

ثم الإحسان نوعـان : إحسان كم ، وإحسان كـيف ، إحسان الكم بأنْ تزيد على مـا فُـرض عليك ، فتـصلى فـوق الفرض وتُزكِّى فـوق الفرض ، أما إحسان الكيف فبأنْ تخلص فى عبادتك لله ، وأنْ تعبد الله

---

(١) جزء من حديث قدسى ، أخرجه البخـارى فى صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه أحمد فى مسنده (٦/٢٥٦) من حديث عائشـة ، وقد أفاض فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى شرح هذا الحديث فى كتاب « الأحاديث القدسية » (١/٨٧) بتحقيقنا .

كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك[1] يعنى : إذا لم يكُن لديك الإشراق والشفافية التى تريك الله ، فلا أقلَّ من أنْ تعبده على أنه يراك .

وساعة تدخل فى مقام الإحسان فأنت حرٌّ إذن فيما تقدم من الإحسان ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١) ﴾ [التوبة] على حسب ما تخفَّ نفسك للطاعة ، خفَّتْ لخمس ركعات ، خفَّتْ لعشر ، خفَّت لخمسة بالمائة فى الزكاة ، خفَّتْ لعشرة .. الخ أنت حر .

ألا ترى أن الحق سبحانه لما تكلم عن هذا المقام قال : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] أما فى الزكاة المفروضة فقال : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

إذن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١) ﴾ [الأحزاب] أى : تقوى تناسب مقامك من ربك ؛ لأن عطاءات الله سبحانه لا تتناهى ، كما أن كمالاته لا تتناهى ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ولما سألته السيدة عائشة : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[2] .

يعنى : العبادة لا تكون لمجرد الثواب والمغفرة ، إنما هناك درجات وارتقاءات أخرى .

---

(١) هو حديث جبريل المشهور الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه فى صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد ، وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ورسول الله يجيبه .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٣٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٩) من حديث عائشة رضى الله عنها .

والتقـوى : قلنا أنْ تجعل بينك وبين ما يمكن أنْ ينشـأ منه ضرر لك وقاية ، لكن كـيف نجعل بيننا وبين ربنا سبـحانه وقاية ، ومهـمة التقوى أن تندمج مع الله فى معيته ؟ هذا فى حق مَنْ يتحكم جيداً فى نفسه ، ويحملها على منهج الله .

قالوا : لأن لله تعـالى صفات جلال وصـفات جمال ، ولكل صـفة منها مطلوب ، فـالله تعالى غفـور رحيم ، وهو أيضاً سـبحانه القـهار الجبـار المنتقم ، الله سبحـانه هو الضار وهو النافع ، إذن : فصـفات الجمال هى التى تُؤتى الإنسان الخير الذى يحبه ، وصفات الجلال هى التى تتـسلط على مَنْ يخالـف . فعلى العـبد دائمـاً أنْ يظل خائفـاً من صفات الجلال راجياً صفات الجمال .

إذن : تقوى الله تكون بأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأنك لستَ مطيقـاً لهذه الصـفات ، ولا تطيق مسَّـة خفيـفة من النار ، وهى جند من جنود الله فاحذرها .

وعرفنا فى مسألة الشفاعة أن الصيام والقرآن يشفعان لصاحبهما ، وأن الله يُشـفِّع بعض المؤمنين ، ويُشـفِّع الأنبيـاء والملائكة ، ثم بـعد ذلك تبقى شفاعة أرحم الراحمين ، فكيف يشفع الله عند الله[1] ؟

---

(١) عن أبى بكر الصديق فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قـال : « عُرِض علىَّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيـشفعون ، ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجـىء النبى ومعه العصابة ، والنبى ومعه الـخمسة والسـتة ، والنبى ليس معه أحـد . ثم يقال : ادعوا الشـهداء فيشفـعون لمن أرادوا ، فـإذا فعلت الشـهداء ذلك يقول الله : أنـا أرحم الراحمـين ، أدخلوا جنتى من كـان لا يشرك بى شـيئـاً فيدخلون الجنـة » الحديث أخرجـه أحمـد فى مسنده (١/٤) وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٤) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص ١١٩) .

قالوا : أى تشفع صفات الجمال عند صفات الجلال ، فحين يذنب العبد ذنباً تتسلط عليه صفات الجلال لتعاقبه ، فتتصدى لها صفات الجمال ، وتشفع عندها لتسقط ما لها عنده من حق .

ثم يقول سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ۝١ ﴾ [الأحزاب] فهل حين يتقى رسول الله ربه أيطيع الكافرين والمنافقين ؟ قالوا : جمع القرآن بين الأمر بالتقوى والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين على الالتزام ، تقول : أكرم فلاناً وفلاناً أيضاً ، فلم تقل لا تكرم إلا فلاناً ، إذن : فعطف لا تُطع الكافرين والمنافقين على ﴿ اتَّقِ اللَّهَ .. ۝١ ﴾ [الأحزاب] بالالتزام .

والنبى ﷺ حينما جاء جاء على نظام كونى أعده الله تعالى لخَلْقه ، وحين خلق الله الخَلْق أخذ على الإنسانية كلها بكل أفرادها من آدم إلى أن تقوم الساعة ـ أخذ عليهم العهد ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. ۝١٧٢ ﴾ [الأعراف] فشهدوا لله تعالى قبل أنْ تتهيأ لهم المعاصى والشهوات .

فإذا أصابت الناسَ غفلةٌ أو نسُوا هذا العهد بعث الله لهم من رسله مَنْ يُذكِّرهم ؛ لذلك خُوطِب النبى ﷺ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ .. ۝٧ ﴾ [الرعد]

وقال سبحانه عن الرسل : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. ۝١٦٥ ﴾ [النساء] يعنى : ليسوا منشئين تقوى وطاعة ، إنما مذكرون بقضية معلومة سلَفاً من الأزل ، وما هم إلا مبشرون بالثواب لمن أطاع ، ومنذرون بالعذاب لمن عصى ، والحق سبحانه يريد من عباده أنْ يكونوا على ذكر دائم لهذه الحقيقة وألاَّ يغفلوا عنها .

والغفلة تأتى إما من شهوة النفس أو كسلها عن مطلوب شاق

للعبادة أو وسوسة من غير مطيع فى أذنك ، سواء أكان من شياطين الإنس أو من شياطين الجن ، كما قال تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

وقلنا : إن المنحرف يحسد المستقيم على استقامته ، لكنه لا يستطيع أنْ يتحمل تبعات هذه الطاعة ، فلا أقلَّ من أنْ يحاول أنْ يجذب المستقيم إليه ، فيوسوس له ويصرفه عن صفة الكمال التى له ؛ لذلك حين يوسوس لك صاحبك بشىء من معصية الله فأول شىء ينبغى أنْ تفطن إليه أنه يكرهك ، ولا يريد لك الخير الذى يعجز هو عن إدراكه ، فهو لا يريد لك أنْ تتميز عليه بشىء .

إذن : الكافرون والمنافقون الذين يصادمون دعوة الرسل لم يقدروا على أنْ يحملوا أنفسهم على منهج الله ، ولا أنْ يلتزموا كما التزم المؤمنون ، فلا أقلَّ من أنْ يحولوا بين المؤمنين وبين المنهج الجديد الذى جاء به رسول الله .

وقلنا : إن الرسول لم يأتِ إلا لضرورة ، هى انطماس معالم المنهج عند المرسل إليهم ، وانعدام الرادع فى النفس البشرية أولاً ثم فى المجتمع ككل ، فالإنسان حين يغفل تُذكِّره النفس اللوامة وتردُّه عن المعصية ، فإذا ما ضعف سلطان هذه النفس تحكمتْ فيه النفس الأمَّارة بالسوء وصرفتْه عن الخير كله ، فلم يَبْقَ له رادع إلا فى المجتمع الإيمانى الذى يقوم بدوره فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهذه هى ميزة الخيرية فى هذه الأمة التى قال الله فيها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

فإذا انطمس هذا المبدأ فى المجتمع أيضاً حتى لم يَعُدْ فيه آمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء بإيقاظ جديد برسول جديد ، لكن أمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها وشرفها برسولها أن الله منحها هذه الخيرية ، بحيث لا يعدم فيها الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر أبداً ؛ لذلك لا يجيء رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأنها أمة مأمونة .

ولا بُدَّ للأمة التى توفرتْ لها هذه المناعة الجماعية الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر أنْ يكون لها وَعْىٌ إيمانى وفهم جيد لهذه المهمة ، وقد وردت فيها مذكرة الإيضاح التفسيرية من سيدنا رسول الله حين قال : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »(١) .

فالمشرِّع قدَّر عدم الاستطاعة ، فجعل لكل خطوة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر مجالاً : متى أُغيِّر المنكر بيدى ؟ ومتى أُغيره بلسانى ؟ ومتى أغيره بقلبى ؟

أغيره بيدى فيمن أملك الولاية عليه ، حيث أتمكن من التغيير ، فإنْ كان المُنْكَر ممن لا ولايةَ لى عليه ، فعلىَّ أنْ أغيره بلسانى فى ضوء قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل] بالأسلوب الحسن الجميل ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (١٢٧٥ ، ٤٠١٣) وأبو داود فى سننه (١١٤٠) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ « من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

لكن نجد بعض الدعاة يدعون على غير بصيرة ، فيغفلون مسألة الاستطاعة ، ولا يجعلون لعدم الاستطاعة مجالاً ، ويميلون إلى تغيير المنكر كله باليد ، وهذا مخالف لأمر رسول الله .

فإنْ توقعتَ أنْ يصيبك ضرر فلتغير المنكر بقلبك ؛ لأن الهدف أن تستقطب المنحرف إلى جهة الاعتدال ، وهذا لا يتم إلا باللين وبالرفق حتى لا تجمع عليه شدتين : الأولى أنْ تُخرِجه مما يألف ، والثانية : أنْ تُخرجه عما يألفه بما يكرهه .

ويخطىء الكثيرون في فهم تغيير المنكر بالقلب فيظنون مثلاً أن تقول في نفسك : اللهم إن هذا منكر لا يرضيك وأنا أنكره ، هذا مجرد إنكار باللسان والله لا يريد كلمة تخرج من أفواههم ، إنما يريد منا عمل القلب الذى يتبعه عمل الجوارح ، فقالبك فى هذا الإنكار تابع لقلبك .

فحين ترى مَن استشرى فى العصيان والطغيان وأنت لا تقدر على نهيه ، لا بيدك ولا بلسانك ، ولا تستطيع مواجهته ، فعليك أن تكون كارهاً لعمله معرضاً عنه ، مهملاً له ، فلا تجامله فى حزن ولا تُهنِّئه فى فرح ولا تساعده إن احتاج .. الخ .

عليك أنْ تعزله عن مجتمعك ، فإذا فعل معه الجميع هذا الفعل ، وسلكوا معه هذا المسلك سقط وحده وارتدع .

لذلك لم نر النبى ﷺ صنع سجناً للمسلمين المخالفين ، إنما جعل سجنهم فى عزل المجتمع الإيمانى لهم ، أو سجن المجتمع عنهم ، لا يكلمهم ولا يتعامل معهم ، حتى الزوجة عزلها الشرع عن زوجها لا يقربها حتى يقضى الله فى أمره .

أتذكرون قصة كعب بن مالك[١] ، وكيف عزله المجتمع الإيمانى وكان من الثلاثة[٢] الذين خُلِّفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، حتى قاطعه أقرب الناس إليه ، فلما تسوَّر الحديقة على ابن عمه وقال : تعلم أني أحب رسول الله فلم يرد عليه .

وتأتى زوجة[٣] هلال إلى رسول الله وقد كان أحد الثلاثة أيضاً ، وتقول : يا رسول الله ، إن هلالاً رجل كبير السن ، ليس له ما للرجال فى النساء ، فقال لها : اخدميه لكن لا يقربنك . وقد ظل هؤلاء فى هذه العزلة حتى أن القرآن قال فيهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ .. (١١٨)﴾ [التوبة]

هكذا التزم المسلمون الأوائل بشرع الله ، واستطاعوا لا نقول سجن المخالف ، إنما سجن المجتمع عنه ، وهذه المسألة هى سبب الأزمة التى تعيشها بلدنا الآن ، فالمجرم الذى يعيش بيننا ، أليس معلوماً لأهل المنزل الذى يعيش فيه ، بل لأهل الحى والشارع ؟

فهل ذهب واحد منهم إلى تاجر فقال له : أعطنى كذا فقال :

---

(١) هو : كعب بن مالك الأنصارى ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بني سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع سبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، إلا تبوك ، تخلف عنها ، وتاب الله عليه ، ذهب بصره فى آخر حياته وتوفى عام ٥٠ هـ فى خلافة معاوية عن ٧٧ عاماً .

(٢) الثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

(٣) هى : خولة بنت عاصم امرأة هلال بن أمية [قاله ابن حجر فى الفتح ٨/١٢١] . ويروى مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) والبخارى فى صحيحه (٤٤١٨) أن امرأته جاءت رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

لا ليس عندى وقاطعه ؟ هل سلَّم واحد منهم على شخص ، فلم يردّ عليه السلام ؟

إذن : المجتمع كله يتحمل هذه المسئولية ، ويتحمل الإثم عليها ؛ لأنه تستَّر على هؤلاء ، لدرجة أن نقول : إن المجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين .

وينبغى قبل أنْ نتكلم عن المجرم نتكلم معه نحاوره وننصحه ونحسن إليه قبل أن نقاطعه ، نفهم هذا المعنى من قول سيدنا رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] ولم يقل على سلطان جائر . فقبل أنْ نفضحه ونُشنِّع عليه يجب أنْ نتكلم معه ، وأنْ ننصحه حتى يعلم أنك تريد به الخير ، وتريد أنْ ترده إلى الجادة فيقبل منك ، وعلى الأقل لا يضرك ، إنما آفتنا أننا نُشنِّع على المجرم، وربما نُحمِّله فوق الصدق الواحد ألف كذب لمجرد كراهيتنا له .

لذلك قال العربى فى صفات الناس : إنْ علموا الخير أخفوه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإنْ لم يعلموا كذبوا .

إذن : معنى التغيير بالقلب أن يكون قالبك موافقاً لقلبك ، وهذه لا تُكلِّفك شيئاً ، على خلاف التغيير باليد أو باللسان ؛ لذلك وصفه رسول الله بأضعف الإيمان ، يعنى أنها مسألة يقوم بها الضعيف .

وبعزل المجتمع عن المجرم تنتهى ظاهرة الإجرام ، وما استشرى الإجرام إلا حين خاف الناس من المجرمين وتملَّقوهم وتودَّدوا إليهم ربما لاتقاء شرِّهم ، ولم لا يزداد المجرم فى إجرامه والأمر كذلك ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

لذلك جعل الشارع الحكيم الدية فى القتل الخطأ ليست على القاتل وحده ، إنما على العاقلة أى : على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم أبنائها ، والأخذ على أيدى المنحرف منهم ؛ لأنها هى التى ستتحمل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق - سبحانه وتعالى - حين وضع المنهج الذى يُنظِّم حياة الخَلْق يريد سبحانه الخير لخلقه ، وهو سبحانه صاحب الخير ولا ينتفع منه بشىء ، فلو أن الخَلْق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى مُلْك الله شيئاً[1] .

ثم هو سبحانه خلق الإنسان ، وحدد مهمته فى الحياة ، ووضع له قانون صيانته فيها ، كما أن صانع الآلة يحدد الهدف منها قبل صناعتها ، وحدد لها قانون صيانتها ، فالذى صنع الغسالة مثلاً رأى كيف تتعب المرأة فى عملية غسيل الملابس ، فصنع هذه الآلة لتقوم بهذه المهمة ، ولم يحدث أنْ صنع صانع آلة ، ثم قال : انظروا فى أىِّ شىء يمكن أنْ تُستخدم .

لذلك ، فَشَلُ العالم كله يأتى من أن الخَلْق يريدون أنْ يحددوا مهمة الإنسان ، ويضعوا له قانون صيانته ، ويغفلون أنه صنعة الله ، والذى يحدد مهمة الصَّنْعَة هو صانعها .

والحق سبحانه حدَّد لنا مهمتنا فى الحياة قبل أنْ يستدعينا إليها ،

---

(١) قطعة من حديث قدسى طويل ، أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، وأحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . ولفظ الحديث : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

واقرأ إنْ شئتَ قوْلَ ربك : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن]

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له المنهج ، وحدَّد له مهمته وقانون صيانته فى قرآنه الكريم ، كما يحدد الصانع مهمة صَنْعته أولاً ، فإنْ حدث فى هذه الصنعة عَطَب فيجب أنْ تُردَّ إلى الصانع ، وإلى قانون الصيانة بافعل ولا تفعل ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق ، وهو الذى يعلم ما يصلح صنعته ويضمن سلامتها ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ويقول تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

إذن : فآفة المجتمع البشرى أولاً : أنه يريد أن يُحدِّد لخَلْق الله مهمتهم ، وأن يتدخل فى صنعة ليست صنعته . ثانياً : حين يفسد المجتمع يجعلون له قوانين إصلاحية من عندهم ، وهل تركنا الله بدون منهج ، وبدون قانون صيانة ؟

لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ وهو قدوتنا إذا حزبه أمر أو عَزَّ عليه شيء يُهْرع إلى ربه ، ويقف بين يديه فى الصلاة ، كما تعرض أنت آلتك أو جهازك على المهندس المختص ، فيصلح لك ما فيه من عطب ، وهذه مسألة مادية يصلحها المهندس بشيء مادى .

أما الحق سبحانه فغيب ، فحين يصلحك أنت أيها العبد يصلحك بقانون الغيب ، بحيث لا تدرى أنت كيف أصلحك ، المهم حين تعرض نفسك على ربك وعلى خالقك - عز وجل - تعود مُنْشرح الصدر ، راضياً طيِّب النفس .

الحق سبحانه يقول لرسوله : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ..

(١)﴾ [الأحزاب] لأنهم أهل فساد يمارسونه وينتفعون به ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الحق ، وأنْ يعترضوا طريقه ، وأساس الفساد فى الكون أنْ يحب الإنسان أنْ يأخذ خير غيره ، وأن يكون دمه من عرق الآخرين ، فإذا جاء مَنْ يعدل هذا الميزان المائل وقفوا له بالمرصاد ؛ لأن دعوته تتعارض ومنافعهم .

والحق سبحانه بيَّن لنا على مدى موكب الرسل جميعاً أنه ما من رسول إلا كان له أعداء ومعاندون ، لكن سنة الله فى الرسل أنْ تكون لهم الغَلَبة فى نهاية الأمر ، كما قال سبحانه : ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)**﴾ [الصافات]

إذن : فالله تعالى يريد منا الاستقامة على منهجه ، وأهل الفساد يريدون الانحراف عن هذا المنهج ، واقرأ : ﴿**وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ..** (١٥٣)﴾ [الأنعام] يعنى : استقامة على إطلاقها ، فمَنْ منكم يرينا فيه التواءً أو اعوجاجاً؟ ﴿**فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ..** (١٥٣)﴾ [الأنعام]

فالصراط المستقيم واحد ، وسبيل الحق واحد ، أما الباطل والفساد فله سُبُل شتى ، وقد نبهنا سيدنا رسول الله ﷺ إلى هذه القضية حين خَطَّ للصحابة خطاً واحداً مستقيماً ، وعلى جانبيه خطوطاً[1] ، ثم تلا : ﴿**وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا**

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٦٥) والحاكم فى مستدركه (٢/٣١٨) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

وتعلَّمنا فى علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فلو خَطَّ مهندس طريقاً مستقيماً بين بلدين مثلاً تراه لو انحرف فى بداية الطريق عدة سنتيمترات فإنها تبعده عن البلدة الأخرى عدة كيلو مترات .

إذن : الطريق المستقيم هو الذى يُسهِّل لك السفر ، ويقرب لك المسافة ، أما السبل المتعددة فإنها تهدر مجهودك وتشقُّ عليك ، حتى أنت فى لغتنا العامية تقول لصاحبك : (تعال دُغرى) أو تقول (بلاش لف ودوران) كذلك يقول لك ربك : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

وإن كان طريق الحق واحداً ، فطرق الضلال متعددة ، فواحد فساده من ناحية المال ، وواحد من ناحية النساء ، وواحد يفسده المنصب والسلطان .. إلخ .

فإذا ما جاء رسول من عند الله يكبح جماح هؤلاء لا بُدَّ أن يتصادموا معه ؛ لذلك ينبه الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه ﷺ : أول مراتب التقوى أن تتقى الله وحده ، ثم لا تُطع الكافرين والمنافقين ؛ لأنهم يريدون أنْ يأخذوك للشر والله يريدك للخير .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الأحزاب] تعنى : أنه لا مانع أن تطيع غيرهم من أصحاب الرأى والمشورة من المؤمنين فيما لم يأتكَ فيه أمر من الله ؛ لذلك نزل سيدنا رسول الله فى غزوة بدر على رأى الصحابى الجليل الحباب بن المنذر[1] لما قال

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى ثم السلمى . قال ابن سعد وغيره : شهد بدراً . وكان يكنى أبا عمر . قال ابن سعد : مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين [الاصابة ١ / ٣١٦]

له : يا رسـول الله ، أهذا منزلٌ أنزلكه الله ، أم هو الحرب والمكـيدة ؟ فقـال رسول الله ﷺ : « بل هو الحرب والمكيدة » ، فـقال : إذن هذا ليس لك بمنزل[١] .

وقد أشار سلمان الفارسي[٢] على رسول الله بحفـر الخندق فأخذ بمـشورته ، والقـاعدة الشـرعية تـقول : لا اجتـهاد مع النـص . فإذا لم يكُنْ فى المـسألة نصٌ فلا مـانع من أنْ تطيع المؤمنين الناصـحين لك ، المشيرين عليك بالخير .

فالحق سبحانه لم يمنع عن رسوله نُصْح الناصحين ، ولم يحرمه مشورة أهل الرأى .

وقد اختلف الناس حول استشـارة الحاكم : أهى ملزمة له أم غير ملزمة ؟ وإجابة هذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

فللحـاكم أنْ يسـمع المـشورة ، وأنْ يقـارن بين الآراء ويفـاضل بينها ، ثم يكون له وحـده القرار النهائى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران] أى : أنت وحدك .

وفى العالم المعاصر نرى الأنـظمة إذا احتاجت إلى أخْذ الآراء فى موضـوع ما ترجح الجانب الذى به الـرئيس ، وهذا لا يصح ، فالآراء

(١) أورده ابن هشام فى السيـرة النبوية (٢٥٩/٣) وعزاه لابن إسحاق ، وتمامـه أن الحباب ابن المنذر قال : : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القـوم فننزله ، ثم نغـور ما وراءه من القُلب ، ثم نبنى عـليه حـوضاً فنملؤه مـاء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال ﷺ « لقد أشرت بالرأى » .

(٢) سلمان الفـارسى صحابى ، من مقـدميهم ، أصله من مجـوس أصبهان ، عاش عـمراً طويلاً . جاب البـلاد طلباً للحق وقـرأ كتب الفـرس والروم واليهود . ثم أسـلم وآمن برسـول الله ﷺ . وقال عنه : سلمـان منا أهل البيت . جُـعل أميراً على المـدائن ، فأقـام فيهـا إلى أن توفى عام ٣٦هـ ، كان ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده . [الأعلام للزركلى ١١٢/٣] .

تنير للرئيس الطريق ، وتوضح له الصورة ، وله هو القرار الأخير ؛ لأن الحيثية التى انتخبته من خلالها أنك تشهد له بالتفوق ، إذن : فهو الذى يرجح أحد الآراء .

وفَرْق بين المشورة والتفويض ، فحين يُفوِّض رئيس الدولة شخصاً أو هيئة لدراسة أمر من الأمور ، أو اتخاذ قرار ، فهى صاحبة الرأى ، وحين تعرض عليه ما توصلتْ إليه يعطيها الموافقة ؛ لأنه فوَّضها فى هذا الأمر ، إذن : التفويض يجيز لك اتخاذ القرار ، أمَّا المشورة فتقف عند عرض الرأى فحسب .

والرسول ﷺ كان لا يريد الخروج لغزوة أُحُد ، لكن لما شاور صحابته أشاروا عليه بالخروج لما عندهم من العزة والحماس لنصرة دين الله ، وظلوا برسول الله حتى استعد للحرب ، ولبس لها ملابسها ، ثم عادوا إلى رأيه ﷺ فى عدم الخروج . فقال ﷺ : « ما كان لنبى يلبس لامة الحرب ... »[1] .

وحدث ما حدث فى أُحُد ولم ينتصر المسلمون ، أما أبو بكر رضى الله عنه ـ فلم يستمع لمشورة المسلمين فى حرب الردة وصمَّم عليها[2] ، وقال : والله لأقاتلنهم ولو بالذر يعنى : بالحصى ، وانتصر

---

(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأى رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً : تخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته فندموا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغى لنبى أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » . أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٢٩/٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى .

(٢) قال البخارى فى صحيحه (كتاب الاعتصام ـ باب قول الله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] (٣٣٨/١٣ ـ فتح البارى) : « لم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ فى الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه ، وقال النبى ﷺ : « من بدَّل دينه فاقتلوه » .

الصِّديق ، وإليه يرجع الفضل فى إنقاذ دين الله من فتنة كادت تذهب به .

إذن : فاجعلوا من اختيار الله لرسوله ﷺ مُرجِّحاً ، فيأخذ منكم جميع الآراء ، ويستشيركم ، ثم ينفذ هو ما يراه مناسباً .

وهنا فَرْق بين الكافرين والمنافقين ، ولدينا بعض المصطلحات التى ينبغى أن نكون على علم بمدلولها : الإيمان والكفر والنفاق والجحد .

الإيمان : الإنسان منا له قلب يحمل النوايا ، وله قالب يعبر عنها ، كما قال الشاعر :

إنَّ الكَلاَم لَفِى الفُؤَادِ وإنَّمَا جُعِلَ اللسَانُ عَلَى الفُؤَاد دَليلاً

فالإيمان هو الحق الذى يعتقده القلب ، ويقتنع به ، ويوافقه اللسان والقالب ، أما إنْ وافق اللسان القلب فى الباطل فهذا هو الكفر .

لذلك قلنا : إن الكافر منطقى مع نفسه ؛ لأنه نطق بما فى قلبه ، لكنه غير منطقى مع الحق لأنه جحده بقلبه وجحده بلسانه . فليس عنده اختلاف بين القلب واللسان .

أما النفاق فهو أنْ يعتقد القلب الكفر ويضمره ، ويعلن اللسان كلمة الإيمان ، فالمنافق يخالف لسانُه قلبَه ، فهو غير منطقى لا مع الحق ولا مع نفسه ؛ لذلك كان المنافق فى الدَّرْك الأسفل من النار ، لأنه أشرُّ من الكافر .

لذلك لما طلب سيدنا رسول الله من القوم أنْ يقولوا : لا إله إلا الله قالتها القلة المؤمنة ، وامتنعت الكثرة الكافرة ، لماذا ؟ لأنهم

يعرفون معناها ، وإلا لَقالوها من بداية الأمـر ، وانتهت المواجهة بين الإيمان والكفر ، فعدم نُطْقهم بها دليل على فهمهم لها ولمطلوباتها .

أما الجاحد فعلى النقيض من المنافق ، فهو مقتنع فى نفسه ، لكنه لا يقدر على النطق بما يقتنع به من الحق ؛ لذلك يقول تعالى عنهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

ولما طال الجدل بينهم وبين رسول الله قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] بدل أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وبعد أنْ قالوا فى القرآن أنه سحر ، وأنه أساطير الأولين .. الخ زهق باطلهم ، وكشف الله جحودهم ، حين حكى قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالقرآن لا غبارَ عليه وهو حق ، لولا أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولو نزل على عظيم من عظماء مكة أو المدينة لآمنَّا به ، وهكذا أثبتوا إيمانهم بالقرآن ، والقرآن يستوجب أنْ يؤمنوا أيضاً بمحمد .

ومعلوم أن الإسلام صاح صيحته الأولى فى أُذن مَنْ ؟ فى أذن كفار مكة وسادة قريش والجزيرة كلها ، وقد كانت لهم الكلمة المسموعة والمنزلة الرفيعة بين العرب جميعاً لقيامهم على خدمة الحجيج ، ووقوع بلادهم على طرق التجارة بين الشمال والجنوب .

إذن : الإسلام لم يستضعف جماعة ليعلن فيهم صيحته الأولى ، إنما اختار السادة ، لكن الله تعالى لم يشأ أنْ ينتصر الإسلام فى مكة ؛ لأنه لو انتصر فيها لكان من الممكن أن يقال : قوم من قريش

تعصبوا لواحد منهم ليسودوا به العالم كما سادوا الجزيرة .

لذلك لما أعلن سيدنا رسول الله دعوته بين قومه أسرعوا إليه يقولون : يا محمد إنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. فقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله ، أو أهلك دونه »[1] .

فشاء الله أن تكون الصرخة الأولى في أذن السادة أصحاب الكلمة والسلطة في مكة ، وأن تكون نصرة الدين في المدينة ، لتعلم الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصبية لمحمد ، وليست العصبية لمحمد هي التي خلقتْ الإيمان بمحمد .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١)﴾ [الأحزاب] أن غير الكافرين وغير المنافقين لا يكون لهم أمر يُطاع مع أمر رسول الله ؛ لأن المؤمن برسول الله يتلقَّى من رسول الله .

لذلك يُعَدُّ من الخطأ بمكان أن نقول : كيف فعل رسول الله كذا وكذا ؟ فنناقشه ونستدرك عليه ﷺ ، وكيف تجعل من نفسك أيها المؤمن ميزاناً وحكَماً يحكم على أفعال الرسول ويضعها في الميزان ؟

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبي طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فقال له ﷺ هذه المقالة .

كمن يناقشون مثلاً مسألة تعدد الزوجات ، ويصل بهم الحدُّ إلى انتقاد رسول الله ، وكأنه يُجرى له محاكمة .

وكيف نعارض رسول الله فى هذا ، والله تعالى لم يعارضه ، ولم يَقُلْه من مسألة الرسالة ، بل ارتضى الله فعْل رسوله وباركه ، فلا تَجعل من نفسك مقياساً على رسول الله ؛ لأن الأصل أنه هو المقياس الذى نقيس عليه أفعالنا ، فنسأل : أفعل رسول الله ذلك أم لم يفعل ؟ فإنْ فعل فعلنا .

ومن هذا المنطلق سُمِّى الصِّديق صدِّيقاً ، فلما حدَّثوه أن رسول الله يخبر أنه أتى بيت المقدس فى ليلة قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

والحق سبحانه حين ينهى رسوله عن طاعة الكافرين والمنافقين إنما يُبيِّن له طبيعتهم ، وحقيقة عدائهم له ، فهُمْ غير مخلصين له ، وعليه أن يتهم أمرهم إنْ أمروه ويتهم نهيهم إنْ نَهوْه ، وكيف يُخلصون فى أمره أو نهيه ، وقد جاء ليصادم سيادتهم ، ويكسر جبروتهم وكفرهم ؟

وهَبْهم مخلصين لك لأنك من قريش ، ويريدون نصرتك فينقصهم فى نُصْحهم لك العلم والحكمة ، فلا يصح إذن أنْ تقارن بين طاعة الله وطاعة هؤلاء ، مهما كانوا مخلصين لك .

كما نلحظ أن القوم فعلاً طلبوا من رسول الله أشياء ، فكأن الله نبهه قبل أنْ يطلبوا منه إلى ما يُطلب منه من مخالفتهم وعدم طاعتهم ، والطاعة فيها مطيع ومطاع ، وهم يريدون أن يكونوا

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدِّقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدِّقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

مطاعين ، ورسول الله طائع ممتثل لأمرهم ، لكن كيف تقلب المسألة بهذا الشكل ، وما جاء رسول الله إلا ليُشرِّع للناس فيطيعوه ، فهو الذى يأمر ، وهو الذى يُطاع .

فكأن الرسول ﷺ يقول لهم : كيف أقارن بينكم وبين ربى ؟ وقد ثبت ذلك فقد جاء أبو سفيان وعكرمة بن أبى جهل والوليد بن المغيرة والأعور السلمى وانضم إليهم وفد ثقيف ، جاءوا جميعاً إلى المدينة واجتمعوا بعبد الله بن أُبىٍّ ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وقد أمَّنهم رسول الله فقالوا : يا محمد كُفَّ عن آلهتنا : اللات والعزى ومناة ، واشهد بأن شفاعتهم تُقبل عند الله ، ونريد أن تحفظ لنا كرامتنا ومهابتنا بين العرب ، فمتِّعنا بآلهتنا سنة وأقرنا على ذلك ، ونتركك وشأنك مع ربك(١) .

فنهاه الله ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ① ﴾ [الأحزاب] لأنك لا ينبغى أن تتراجع أمامهم فى شىء أبداً ، وإلاَّ لكنتَ خاضعاً لهذه السيادة المزعومة ، ولأعطيتَهم الفرصة حين تطاوعهم ؛ لأنْ يقولوا : لقد أطاعنا محمد فيصيرون هم الهادين ، وأنت المهدى .

ثم إن هذا الأمر بعدم طاعتهم وهم القادة والصناديد وما زالت الدعوة وليدة تحتاج إلى مهادنة مع أعدائها ، وربما يقول قائل : ولمَ لم يهادنهم رسول الله حتى يشتدَّ عود الدعوة ، فهم سادة القوم وأصحاب الكلمة والمهابة ؟ لكن منطق الحق يرفض هذه المهادنة ، ويرفض أن يعتمد رسول الله إلا على الله ؛ لذلك قال فى الآية

---

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٦) أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② ﴾ [الكافرون] نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة . فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره .